PP-529-536
P-ISSN: 2716-8093 E-ISSN: 2716-8212

اللغة والهوية الاجتماعية
Language and Social Identity

عبد القادر أمزيان
Abdelkader AMEZIANE
جامعة حسيبة بن بوعلي (الجزائر)
a.ameziane@univ-chlef.dz

-**تاريخ الاستلام**: 2024/04/23 -**تاريخ القبول**: 2024/06/03 -**تاريخ النشر**: 2024/06/ 06/30

ملخص:
تواصل الناس منذ القديم فيما بينهم باستخدام عدّة طرق ، فاستعملوا الرّموز والإشارات عند تعذّر فهم لغة الآخر، والرّسم على الصخور وفي المغارات تعبيرا عن مشاعرهم ومقاصدهم وظروف حياتهم اليومية، وأقوى هذه الطرق في التواصل وفهم المقصود هي الكلام، حيث يتميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات بقدرته على النطق وإنتاج عدد غير محدودٍ من الكلمات والجمل التي يعبّر بها عن أغراضه؛ بل تُعدّ اللغة وعاءً يحمل فكر وثقافة الناس، وهي من أهمّ مقومات هويتهم الاجتماعية؛ ومن هذا المنطلق قام علماء اللغة عبر العصور دراسة مختلف اللغات نظرا لأهميّتها في التواصل بين الناس؛ وسنحاول في هذا العرض تحديد العلاقة التي تربط ما بين اللغة ومظاهر الحياة الاجتماعية وأثر هما في بناء الحضارة الإنسانية والدور الذي تؤديه اللغة في حراسة القيم والمبادئ والفكر والثقافة التي تمثّل مقوّمات الهوية في كلّ المجتمعات.
كلمات مفتاحية: اللغة، التواصل الاجتماعي، التأثير والتأثر، الفكر والثقافة، الهويّة.

Abstract
Since ancient times, communication between people was with different ways, such as drawing on rocks, or using signals .The most powerful ways of communicating and understanding what is meant by speech, where humans are distinguished from other creatures by their ability to pronounce and produce an infinite sentences expressing their purposes; By the way, linguists - old and modern - studied the language of humans with different tongues, In order to identifying its importance in communication in society; We will try to identify the relationship between language as an effective way of communicating between individuals. And social phenomena in any group using that language for communicating purpose; Thus building human civilization, language plays a role in protecting the values, principles, thought and culture that represent the elements of identity societies.
Keywords: Language- Social communication- Impact- Thought- Culture and Identity.

مقدمة:

تعدّ اللغة من بين الظواهر الاجتماعيّة، وقد اختلف تعريف العلماء لهذه الأخيرة باختلاف نظرتهم إلى المجتمع ومكوناته والعلاقات التي تربط بين الأفراد، وكذا سلوكهم نحو بعضهم البعض، وحتى توجهاتهم الفكرية والدينية؛ ومن أبرز تعاريف الظاهرة الاجتماعية ما جاء عند إميل دوركايم (Emile Durkheim/ 1858-1917م)، وهو عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، يعدّ من مؤسّسي علم الاجتماع الحديث، حيث قدّم تعريفا مختصرا وشاملا إذ وصفها أنّها:" أنواع السلوك المختلفة سواءً أكانت ثابتة أم متغيّرة... أو هي كلّ سلوك يتشكّل بين أفراد المجتمع بأكمله". (القريشي، 2012، الصفحات 312-313).

و تمتاز الظواهر الاجتماعية بعدة صفات كترابطها وتداخلها مع بعضها بعض، حتى أنّ الدّارس لظاهرة واحدة يجد نفسه مجبرا على دراسة الظواهر الأخرى المحاذية لها أو المتداخلة معها شاء أم أبى؛ ويمكن القول أنّ تلك الصفات المميّزة لها تعكس مدى التأثر والتأثير بينها وبين اللغة، وكلّ ذلك يتمّ بناءً على اعتبار اللغّة فعلا اجتماعيًّا لا بدّ منه لتحقيق التّواصل بين أفراد المجتمع، و هو ما جاء في تعريف علمائنا القدامى، سواءً اللغويّين منهم أمثال أبي الفتح عثمان ابن جنيّ الموصليّ(ت.392هـ) وهو معاصر لأبي علي الفارسي(ت377هـ)، وكان صديقا للمتنبي(ت354هـ)، وهو ما يقوّي مكانته اللغوية، حيث وصف اللغة أنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم (ابن جني ، 1952، صفحة 33)

أمّا الذين خاضوا غمار العلوم الإنسانية وعلى رأسها علم الاجتماع، كعبد الرحمن بن خلدون(ت808هـ/1406م) -الذي يُعدّ مؤسّسا لهذا العلم- فإنه يرى اللّغة في مقدّمته أنّها عبارة المتكلّم عن مقصوده (ابن خلدون، 1993، صفحة 295)، فهو يبيّن أنّ الغرض من التلفظ بألفاظ اللغة هو التعبير عمّا يريده المتكلّم ويقصده ويهدف إلى أن يفهمه السامع، وبالتالي تقوم بين الطرفين عملية تواصل بطريقة آلية؛ بل أكّد في التّعريف ذاته أنّها -أي اللغة- "فعلٌ لسانيّ" جاء لتحقيق الغرض السابق، وهو قوله: "ناشئٌ عن القصد لإفادة الكلام"[1]، ومن ثمّ يصبح الكلام ملكةً راسخةً في ألسنة الناس، وبه تتواصل كلّ أمّة بحسب ما قد تصطلح عليه من مفردات ومعانٍ تراها مناسبة لثقافتها وعاداتها وأعرافها ودينها، وهو ما عبّر عنه بقوله:" وفي كلّ أمّة بحسب اصطلاحاتهم". (ابن خلدون، 1993)

أمّا في العصر الحديث فإنّنا نجد الكثير من اللغويّين الغربيّين الذين عُنوا بهذا الموضوع، ومن أبرزهم العالم اللساني السويسري فردناند ديسوسير (Ferdinand de Saussure /1857-1913) الذي يؤكّد في محاضراته التي جمعها طلبته أنّ اللغة فعل اجتماعيّ، وقد يصفها بأنها نتاج اجتماعيّ، (Dessaussure, pp. 21-30-44) ونجد ذلك مقرّرا في محاضراته التي جمعها طلابه في كتاب أطلقوا عليه "محاضرات في اللسانيات العامّة" ويذكروه باختصار في مصطلح "CLG" والذي يعني بالفرنسية cours de linguistique générale.

ومن أبرزهم كذلك اللغوي الفرنسي أنطوان ميي (Antoine Meillet/1866-1936م)، الذي درس الفلو لوجيا -فقه اللغة-، والسنسكريتية واللغات الشرقية، وهو مختصّ في علم اللغة الاجتماعيّ، ودرّس اللغويات خلفا لأستاذه سوسير (CALVET، 2023)،حيث أكّد في عدّة نصوص على الطّابع الاجتماعيّ للغة، بل عرّفها أنّها: فعل اجتماعيّ أو حقيقة اجتماعيّة، وهو في ذلك يخطو خطى Émile Durkheimعالم الاجتماع السابق ذكره. (Calvet، 2017، صفحة 5)

1. اللغة والتواصل:

1.1. اللغة ظاهرة اجتماعية:

فالظواهر الاجتماعية تخلقها طبيعة الاجتماع وليست من صنع الأفراد، إذ تنبعث من تلقاء نفسها من حياة الجماعات ومقتضيات العمران، وهو ما يعنيه علماء الاجتماع بقولهم: نتاج العقل الجمعي، ومثال ذلك: أنّ الفرد عندما يندمج في مجتمع جديد - إمّا

نزوحا بسبب الحرب، أو طلبا للرزق، أو الدراسة أو التداوي أو غير ذلك من الأسباب... فإنّه يجد صعوبة في الاندماج معهم لأنّ ذلك ليس من عاداته التي ورثها عن أسلافه، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يؤثّر بعاداته في المجتمع الجديد لأنّه وحيد وضعيف وعنصر دخيل على ذلك المجتمع الذي يكون أقوى في التّأثير لأنّ النّاس كلّهم يمارسون عاداتهم التي تعارف عليها أسلافهم فرسخت في ذاكرتهم حتى أصبحت جزءا من نمط عيشهم، بل لا يكادون يجدون حلاوة العيش إلا بممارستها، سواءً أتعلق الأمر بالحياة العاديّة أم بالمناسبات المتنوعة كالأعياد الدينية والوطنية والاجتماعية والثقافية؛ إذ تلقّوها بالوراثة جيلا عن جيل، حتّى أصبحت من القواسم المشتركة التي تجمعهم داخل المجتمع الذي يتشاركون العيش فيه.

وبما أنّ اللغة وليدة الاجتماع البشريّ فهي ذات طابع اجتماعيّ، ونجدها تشترك مع الظواهر الاجتماعية في النقطة الأولى، حيث هي مِن وضْعِ المجتمع وليست مِنْ وَضْعِ الفرد، إذ ليس المقصود هنا الكلام الذي يصدر عن كل فرد، فالكلام يمكن أن يصدره أيّ إنسان لأنّه مجهود شخصيّ، بل هو من خصائص كلّ فرد من البشر بالفطرة، ولكنّ المقصود هو ما يتّفق عليه النّاس من مصطلحات و يجتمعون على رأي واحد فيما يخصّ معانيها ودلالاتها عند التواصل مع بعضهم البعض، وهو ما يجعل الكثير من مفردات اللغة اصطلاحية أو عرفيّة أي أنها تنشأ بتواضع المجتمع واتفاقه على معانيها ودلالاتها المختلفة، بل يشمل ذلك حتى أماكنها وأزمنتها، كالتهاني والتّعازي والتّحيّات لأنها تعبّر عن ثقافة المجتمع وأخلاقه وكيفية التعامل بين الأفراد والجماعات داخله، لذا هناك من يعدّ اللغة استعمالا مقيّدا بالسّياقات والمقاصد التي يرتضيها مجتمع معيّن، وهو ما يسمى بالأعمال اللغوية الطقوسية، أي التي تصدر عن الأشخاص في طقوس أو شعائر معيّنة. (http://www.alecso.org/bayanat/arabic_sociolinguistics.htm)

2.1 اللغة أداة للتواصل بين أفراد المجتمع:

واللغة - كما هو حال الظواهر الاجتماعية- مشتركة بين أفراد المجتمع وليست من خصوصيات الفرد، وإلا فكيف يمكنه التواصل مع باقي أفراد الجماعة والتفاهم معهم، وتبادل الأفكار؟ إذ إنّ كلّ فرد منّا يولد فيجد نظاما لغويّا يسير عليه مجتمعه فيتلقاه عنه بطريقة تلقائية بواسطة التعلم والمحاكاة عن طريق المقربين منه وبالخصوص العائلة والمحيط القريب منه مثل أصدقائه في اللعب، ثم في المدرسة، ومن ثم يبدأ تعلم المفردات الجديدة باحتكاكه بشرائح أخرى من الناس حتى يصقل تجربته اللغوية، كما يتلقى عن مجتمعه سائر النظم الاجتماعية من عادات وأعراف وثقافة وفكر، ويصبّ أصواته في قوالبه، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره؛ فاللغة وسيلة اتصال وتفاهم ينفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، إذ هي من أبرز الوسائل التي يستعملها للتعبير عن خبراته ومشاعره وآرائه، كما تتجلى الوظيفة الأساسية للغة في (الاتصال communication) فهي من أكثر الوسائل المتاحة استعمالا لهذه الوظيفة.[2] (فاطمة الزهراء ، 2017، صفحة 51)

والظواهر الاجتماعيّة تتميّز بكونها نُظُمًا عامّة يشترك في اتّباعها أفراد المجتمع ويتّخذونها أساسا لتنظيم شؤون حياتهم، وعليها تقوم العلاقات التي تربط بعضهم ببعض داخل سائر المجتمعات البشرية، ومنها تقوم العادات والتقاليد والأعراف التي نجدها في كلّ مجتمع؛ ومثال ذلك: ما نجده في سائر المجتمعات العربية من اختلاف في الأعراف والتقاليد، بل وحتى بين الأقاليم في البلد الواحد، وبين المدن في ذات الإقليم، بل وبين العشائر والقبائل ولو كانت متجاورة، إلاّ أنّ عامل اللغة يمثّل عنصرا قويّا في ترابط تلك المجتمعات والقبائل والعشائر، بسبب تفاهمهم باللغة التي يشتركون فيها جميعا، ويتواصلون بينهم بواسطتها دونما مشقة، فمثلا نجد أنّ أغلب سكان البلاد العربيّة مسلمون، لذا كانت اللغة من أهمّ عوامل ترابطهم ووحدتهم، إذ هي لغة شريعتهم التي يتبعونها ولغة القرآن الذي يشتركون جميعهم في تلاوته أثناء الصلاة (وافي، ،1403هـ/1983، صفحة 5).

3.1 اللغة من مقوّمات الهويّة:

قد يتوهّم البعض أنّ وظيفة اللغة تنحصر في كونها وسيلة للتواصل الاجتماعي، أو أنّها تستخدم في تدريس العلوم والمعارف ومجرد وسيلة للتعبير وفقط؛ بل هي أكثر من ذلك، فهي تتعدّى حدود التواصل والتعليم إلى كونها رمزا للهويّة، لذلك نجد الأمم الغالبة دائما ما تركّز على مسألة فرض لغتها والعمل على محاربة لغة الأقوام والشعوب التي تسيطر عليها، إنما تهدف من خلال ذلك إلى طمس تاريخها وهويتها، ويكون هذا بفقد لسانها الذي كان عاملا مُهِمًّا في توحيد أبنائها وحفظ تراثها المادّيّ والمعنويّ، لذلك هم مستعدّون لكل شيء من أجل الحفاظ على لغتهم والتصدي لأي شكل من أشكال الممارسات التي من شأنها أن تنتقص من قيمتها بَلْهَ محاربتها، خاصّة إذا كان مبعثها الدين والعقيدة، كما حصل الأمر في الأندلس عندما حارب القشتاليّون الكلام باللغة العربيّة، وكل ما يدلّ على شعائر الإسلام عند الموريسكيّين، فمنعوهم من الظّهور بأيّ مظهر من مظاهر الإسلام والعروبة حتى لو كان لباسا، وهو ما تؤكّده كلّ الكتب التي أرّخت لمحنتهم بعد حروب الاسترداد المسماة في اللغة الإسبانية la reconquista، وديوان التفتيش المسمى La inquisición، حيث أدركوا أنّ حربهم على الهوية العربية الإسلامية يجب أن تبدأ بمحاربة اللغة العربية خاصّة، فأصدروا عشرات القرارات التي تَحُول بين المسلمين ودينهم ولغتهم (عطيات ، 2012م)، وأصدروا مرسوما ملكيّا يقضي بتسليم سائر الكتب العربية، فقاموا بحرق حوالي مليون كتابا من كتب العربيّة في ساحة باب الرملة بغرناطة، ولا سيّما المصاحف وكتب الأدب والشّريعة، ولم ينج من تلك الجريمة سوى بعض المؤلفات الطبّيّة والعلمية الأخرى التي حوّلت لتدعم جامعة Alcala de Henares في الشمال، وترجمتها بالعربية (قلعة هنارس أو النهر) من أعمال العاصمة الإسبانية الحالية مدريد، وبها جامعة كبيرة، وهي كذلك مسقط رأس الأديب الإسباني المشهور ميغيل دي ثيربانتس (Miguel de Cervantes).

وفي السّياق ذاته، يجب التنبيه على مقاومة الموريسكيين -الإسبان المسلمين- لمحاولة طمس الهويّة العربية والإسلامية، حيث اخترعوا لغة جديدة تمكنّهم من البقاء على صلة بالعربية والقرآن والدّين الإسلاميّ، هي لغة الألخميادو aljamiado أو الألخميادية بمعنى الأعجمية، حيث تعتمد على أحرف عربية، ولكنها باللغة القشتالية الإسبانية، أو البرتغالية أو القطلونية، أو حتى اللاتينية التي عمّت في عدّة أماكن آنذاك، حتّى يسهل تداولها، وبالتالي التواصل بين المسلمين المتخفين في أرجاء المملكة آنذاك.[3]

بينما ترى الباحثة Nuria De Cstilla أن الألخميادو -*الأعجمية*- ليست لغة بالمفهوم المعروف، وإنما هي مجموعة من النصوص التي كتبها الموريسكيون والمدجنون الذين عاشوا في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الطرد النهائي بين سنتي 1609-1614م، مستخدمين صيغة لغوية من القشتالية ولغة أراغون، مع التأثير القوي للغة العربية التي كتبت بها تلك النصوص الأدبية، فهو حسب الباحثة نص موريسكيّ مكتوب بلغة رومانسية ولكن بأحرف عربية، وهو ما يثبت علاقة اللغة والأدب بالثقافة والدين. (Louis, 1977, p. 38)

ولنا في ممارسات الاستعمار الفرنسيّ - كونه أقرب عهدا- أثناء تواجده بالجزائر خير مثال، حيث اجتهدت السلطات الاستعمارية الفرنسية في محاربة اللغة العربيّة، بغرض طمس الهوية العربية والإسلامية، فأغلقت المدارس والمعاهد، ثمّ أصدرت قرارا يمنع دراسة وتدريس اللغة العربيّة والقرآن الكريم ولو كان موجها للصبيان، إلا من منحته السلطات ذاتها رخصة تسمح له بذلك، وكانت الرخص تمنح لمن كانوا موالين لها بكل تأكيد؛ وقد وصف العلامة ابن باديس(1889-1940) بصفته رئيس جمعة العلماء المسلمين الجزائريين ذلك القرار أنه قانون مشؤوم، لأنه يحرم النشء من تعلّم لغتهم وثقافتهم، ويرمي إلى تربيتهم على لغة وثقافة لا تمتّ إلى هويتهم بصلة، فقال عنه:" قانون الثامن مارس المشؤوم، ذلكم القانون الذي شاهدتم أثره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها، والمغارم التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، وما لقيتم وتلقَوْن من جهد وعنَتٍ، أشهد أنه لم تُرمَ الجزائرُ المسلمة بمثل هذا السهم، على كثرة الرمي وتفنُّن الرماة؛ فقد كان كلُّ ما أصابها هو في بدنها، وفي غير معقِدِ البقاء منها، أما هذا السهم فهو في رُوحها، في صميم فؤادها، في مصدرِ حياتها" (ابن باديس، 1939)؛ الرسمية للسلطات الفرنسية بالجزائر.(Gallica.fr, 1938)وقد صدر المرسوم في الجريدة.

فقد بيّن ابن باديس خطورة هذا القرار على هوية الشعب الجزائري المتمثلة في دينه وثقافته ونمط عيشه الموروث عن أجداده، ومثّلَ هوية الأمة بالروح، حيث كان منعُ الجزائريين من تعلّم العربيّة والقرآن محاربةً لهويّتهم لتحلّ محلها هويّةُ المستعمر الفرنسيّ.

2-بين اللغة والمجتمع:

1.2. التأثر والتأثير:

تتأثّر اللغة بحضارة الأمّة وقوانينها، كما تتأثر بعاداتها وأعرافها عقائدها واتجاهاتها العقلية -*الفكريّة*-، ودرجة ثقافتها وشؤونها الاجتماعية العامة، فكلّ تطوّر يحصل في المجالات المذكورة يؤثّر على اللّغة تأثيرا ظاهرا، "فبين اللُّغة والثقافة رِباط حميم، ذلك أنَّنا لا نتصوَّر لغةً ما بالمفهوم الذي ذَكرْنا لا تنتج ثقافةً، أيًّا كانت تلك اللُّغة أو الثقافة، كما أنَّنا لا نتصوَّر ثقافةً لا تعتمد في جانبٍ أساسٍ منها على وعاءٍ لُغويٍّ يحتويها، ويتفاعل معها وينقلها، هُمَا إذًا دائرتان متداخلتانِ لا يُمكن أن نُخَلِّص إحداهما من الأخرى". (بن نبي، 1406هـ/1986م، صفحة 86)

فالثقافة بالنسبة للغة كالروح للجسد، حيث نجدهما متلازمين لا يفترقان، ومن الجدير الإشارة إلى اهتمام الدول التي تستقطب عددا هائلا من المهاجرين بقضية تعليم اللغة والثقافة السائدة في ذلك البلد، لذلك نجدهم يطلبون منهم التسجيل في مراكز تعليم اللغة والثقافة، والتي قد تسمى: مراكز دمج المهاجرين، وهو ما يبيّن مدى تلازم العنصرين مع بعضهما، بل من العلماء والدارسين من يؤكّد على ضرورة تلقين اللغة إلى جانب الثقافة لمتعلمي اللغة الثانية أو اللغة الجديدة، "لأن فكر الإنسان أو أيديولوجيته عنصر هام في الثقافة ولأن اللغة هي وسيلة لنقل الفكر وبالتالي لا يمكن عزل اللغة عن الثقافة، فالثقافة هي أيضا مرتبطة ارتباطا وثيقا باللغة (Cumming) [4]."

لذلك كانت اللغة بمثابة سجلٍّ لتاريخ الشّعوب، بل قد تكون أصدَقَها، وإنّ كثيرا من الوقائع في تاريخ العرب مثلا يستند المؤرّخون في توثيق وقوعها إلى الاعتماد على شعر مكتوبٍ أو مرويٍّ مذكور في كتب الأدب وتاريخه؛ ومن أمثلة ذلك حرب البسوس التي جرت بين قبيلتي بَكْرٍ وتَغْلِبَ، وكذا حرب دَاحِسٍ والغَبْرَاءِ التي جاءت أخبارهما وغيرهما من حروب وأيّام العرب في شعرها المتداول بين الناس آنذاك كالمعلقات التي تعدّ من جواهر الشّعر العربيّ لا سيّما الجاهليّ منه؛ ومن تلك الأيام والأخبار فتح عموريّة الذي خلّده الشاعر العبّاسيّ حبيب بن أوس الطّائيّ المشهور بأبي تمّام، وجاء ذلك في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

السّيفُ أصدقُ إنباءً منَ الكُتُبِ *** في حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بل ذكر اسم الموقعة واسم الإمبراطور البيزنطي آنذاك ثيوفلس Theophilos، وهو الذي قاد الجيش بنفسه في الحرب ضدّ جيش الدولة العباسية بقيادة المعتصم،(ديوان أبي تمام) حيث قال:[5]

يَا يومَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ *** عَنكِ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

إلى أن قال:

لَمّا رَأى الحَربَ رَأيَ العَينِ *توفِلِسٌ* *** وَالحَرْبُ مُشتَقَّةُ المَعنى مِنَ الحَرَبِ

وغيرها مما أنشده شعراء العصور السابقة واللاحقة؛ ومن هنا نقف على قولهم أنّ الأديب مرآة عصره، بل إنّ العرب قد أصابت لمّا أطلقت على الشعر: ديوان العرب، فقد كان من يحفظ الشعر والأدب يسمّى عارفا بأيّام العرب، هكذا وصفه علماء اللغة الأوائل من أمثال أبي هلالٍ العسكريّ، حيث يقول: (وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلّا من جملة أشعارها؛

فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها؛ فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدّب بلغة العرب أو ناظر في علومها]إليه [ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة) (أبو هلال، 1419هـ، صفحة 138).

ويقول ابن فارس (ت396هـ): (الشعرُ ديوانُ العرب، به حُفِظَتِ الأنساب، وعُرِفت المآثر، وتُعِلِّمَتِ اللغة) (ابن فارس، 1997، صفحة 212)؛ بينما يرى ابن قُتيبة (ت276هـ)أنّ الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسّور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم التّفار، والحجّة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم عندهم على شرفه وما يدّعيه لسلفه من المناقب) (ابن قتيبة، 1418هـ، صفحة 200)

وعَودًا إلى الأندلس، فقد وثّق الشعراء سقوط مدنها وانهيار ممالكها بعد ما يقارب ثمانية قرون من الحضارة العربية الإسلامية، وخير من نستدلّ به قصيدة أبي البقاء بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرُّنْدِي الأندلسي (601 هـ -684 هـ)، وهو من أبناء مدينة رندة، حيث عاشَ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم قواعدها، حيث سميّت قصيدته بمَرْثِيَّة الأندلس، والتي صوّرت مآسي أهل الدّيار الأندلسيّة وما آلت إليه حالهم بعد حكم ملوك الطوائف، وانفراط عقد الدولة العربية الإسلاميّة بتلك البلاد (الرندي)

وتعدّ اللغة أيضا عاملا قويّا من عوامل حفظ المنتوج الفكريّ والأدبيّ للمجتمعات، فما يسمّى بالشّعر الشّعبي الذي يتداوله الناس في المناسبات خصوصا، وهو ما يطلقون عليه *التراث الشعبي*، فإنما هو مأخوذ من الإرث، ونذكّر أنه يُلقَى بلغة العامّة حتى يفهمه جمع غفير من طبقات المجتمع، وهو في مضمونه رسالة تعبر عن الحياة اليومية للناس، وقد يتضمن أمثالا وحكما يمررها الشعراء عبر أشعارهم وأرجازهم وأزجالهم وموشحاتهم، ويضمنونها فنونا من التشبيه والمجاز والكنايات، وفي ذلك يقول ابن خلدون:" ولمّا شاع التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وتصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستحدثوا فنّا سمّوه الزّجلَ والتزموا النّظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة". (ابن خلدون، 1993، صفحة 404)

وإذْ تقرّر أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة تشكّل موضوعا هامّا من موضوعات علم الاجتماع، فقد أفرد لها علماء الاجتماع فرعا هامّا سمّوه: علم الاجتماع اللغويّ، حيث تبيّن للعلماء من خلال دراسة ظاهرة اللغة داخل المجتمع أنّها تتأثّر بالظواهر الاجتماعية الأخرى، وأنّها - زيادةً على التواصل- تحافظ على وحدة المجتمع، وترسم له هويّته الاجتماعيّة والتاريخيّة والثقافيّة والدّينيّة، بل هي أشمل من ذلك كلّه، خاصّة أنّها تقتحم ميدان الحرب التي أعلنتها عليها الأمم الأخرى، فهي في صراع دائم مع لغات أخرى تسعى جاهدة لأخذ مكانتها، وإزالتها من فوق عرشها حتى يزول سلطانها، وتذبل زهرتها؛ نعم إنّه الصّراع اللّغويّ الذي ما تنفكّ اللغات تنجو منه؛ والمؤسف أنّ *أبناء لغة الضّاد -العربية-* يُسهِمون من حيث لا يشعرون في وَأْدِ لغتهم، ويُعينون غيرها عليها، لا سيّما مع انعدام رؤية استشرافيّة وبعد نظر لدى القائمين على شؤون اللغة، والذين هم مطالبون باتخاذ تدابير معينة في التخطيط اللغوي الذي يعزّز مكانتها داخل المجتمعات الناطقة بها على الأقل؛ والأدهى من ذلك كلّه أن يخجل أبناؤها من الحديث بها، وهم لا يدرون أنّها صمام الأمان وخطّ الدّفاع الأوّل عن الهويّة، وأنّ عليهم الافتخار بها والالتفاف حولها لدرء كلّ محاولة لطمسها.

2.2. التزام المجتمع بالنّظام اللغوي:

والمقصود من ذلك عدم مُخالفة الأعراف والقوانين اللغوية واللهجية التي ارتضاها وتعارف عليها المجتمع، وقد يصل الأمر بمن يحيد عن لغته أو يخالفها إلى حدّ العقاب الذي غالبا ما يكون أدبيّا *معنويّا ونفسيّا* من طرف أبناء المجتمع المتكلمين باللغة او اللهجة ذاتها، وفي أقل العقوبات يهجرونه مع التحذير منه ومحاربته بشتى الوسائل حتى يرجع إلى موافقة قوانين الكلام التي اصطلح عليها مجتمعه، وهذا حتى يحولوا بينه وبين عمله الذي خالف به مجتمعه؛ وإذا علمنا ما تقدّم، فعلى المتكلّم في أيّ مجتمعٍ الخضوع إلى قوانين لغة مجتمعه، حيث لا يسعه الخروج عنها فيتكلّم كلاما لا يفهمه باقي الناس في مجتمعه، إذ لا فائدة من ذلك لأنّ الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل مع أفراد المجتمع، وإن حدثت مخالفة لنظام قواعد اللغة كاللحن في الكلام، أو عدم استخدام الألفاظ

بمدلولاتها التي حدّدت لها مسبقا، فإنّه يعرّض صاحبه للازدراء والسّخرية من طرف بقية المجتمع، وقد يرمونه بالغفلة والجهل، لأنهم لا يفهمون ما يتكلم به، وليس هذا الأمر خاصا بالخطإ في تلفظ الكلمات أو اللحن فيها، بل يشمل كذلك ما يصدر عن المتكلّم الذي يعاني من خلل طبيعي في جهاز نطقه، وهو ممّا يؤسف له في مجتمعاتنا، لأنّ الخطأ من متكلّم سالم الأعضاء ليس كمن حال دون نطقه الصحيح عائقٌ خارجٌ عن إرادته. (وافي، ،1403ه/1983، صفحة 5)

خاتمة:

إنّ علاقة اللغة بالحياة الاجتماعية وما تقتضيه طبيعة تعايش البشر علاقة قويّة، حيث تمكّن من الحفاظ على هويّة اجتماعية وثقافية ودينية قويّة ومتينة لدرجة أنّ بعضهم وصف اللغة والظواهر الاجتماعية المذكورة بالوجهين للعملة الواحدة؛ و إذا لم تكن هناك لغة بدون مجتمع، فلا يمكن أن يوجد مجتمع من دون لغة، فهما عنصران متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ وقد أصبح واضحا لبعض الباحثين -*اللغويين بشكل رئيسي*- أن معاني الألفاظ لا يمكن دراستها دون النظر في لغة المجتمع الذي يعيش فيه صاحب الكلام، فلا بدّ أن ينعكس الموروث الثقافي والفكري والاجتماعيّ في كلام الناس في أيّ مجتمع من المجتمعات. (JACQUOT)

لذلك يجب أن يسعى علم اللغة إلى مراعاة الميراث اللغوي والتحولات التي تطرأ على اللغة، وكذا ما يتمّ تداوله من طرف الأفراد والجماعات داخل مجتمعهم من ألفاظ تعكس فكرهم وثقافتهم، وهو ما يمكن تسميته بالعلاقات المنطقية التي تتشكل بين البنية الداخلية للغة والبنية الاجتماعية؛ (Bert)إذن، فاللُّغة عنصر مهمٌّ للغاية في بناء الثقافة وتوجيه مسارها، على أنَّ للثقافة دورَها الخطير في التأثير في اللُّغة باعتبارها فكرًا، واللغة والثقافة معًا ليستَا نابعتَين من داخل الإنسان، أو ليستا فرديّتين، لكنهما جزء من الحراك الذي تعيشان فيه (بن نبي، 1406ه/1986م، صفحة 86)، ومن الموكّد أنّ كلّ العناصر التي سبق ذكرها تشكل مُجتمِعَةً هويّةَ الفرد المتكلّم بتلك اللغة.

وقد خلصت الأبحاث إلى أنّ الخطاب بين الأفراد داخل المجتمع ما هو إلا انعكاس لثقافتهم، ممّا يعني أنّ أيّ تغيّر في الثّقافة فإنّه ينعكس حتما على اللغة، ومن أمثلة ذلك في واقعنا المعيش ما نلاحظه من غزو ثقافيّ غربيّ تبعه تغيّر في العبارات والجمل المستعملة في خطاب الناس اليوم، فقد كانت ألفاظ التّحيّة والتهاني والترحيب تخضع للعرف المستمدّ من الدّين، أمّا اليوم فأصبحت تلك العبارات متأثرة بثقافة المجتمع الجديد، وهو ما يؤكّد فرضية الغزو الثّقافيّ، لا سيّما أنّ الثقافة جزء لا يتجزّأ من الواقع المعيش، وبالتالي فإنّ اللغة انعكاس حتميّ للثقافة.

المراجع:

Cumming, B. (s.d.). *The relationship between language, culture and identity and the implications for language teaching and language policy.* Récupéré sur https://drive.google.com/file/d/0Byrtacm5wf4ESk9ta0hOVTBJZWc/view

JACQUOT, A. (s.d.). *Note sur la relation entre langue, culture et société.* Récupéré sur https://horizon.documentation.ird.fr/exl-doc/pleins_textes/pleins_textes_4/sci_hum/01007.pdf

ابن باديس, ع .(1939) .قانون الثامن مارس المشؤوم، ، *مجلة البصائر الجزائرية*.

Bert, G.-F. (s.d.). Récupéré sur https://serval.unil.ch/resource/serval:BIB_FC5C32A9121C.P001/REF

Calvet, L.-J. (2017). *La sociolinguistique* (Vol. 8). édition Puf.

CALVET, L.-J. (2023, 07 20). *https://www.universalis.fr/encyclopedie/antoine-meillet*.

Dessaussure, F. (s.d.). *cours de linguistiques générales* (Vol. 3). (:. C. Sechehaye, Éd.) Paris, France.

Gallica.fr. (1938, 15 مارس). Récupéré sur Gallica.fr.

http://www.alecso.org/bayanat/arabic_sociolinguistics.htm. (s.d.).

Louis, C. (1977). *Morisques et Chrétiens.* Paris: librairie Klincksieck.

أبو البقاء الرندي. (بلا تاريخ). *الديوان*.

أحمد ابن فارس. (1997). *الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها* (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

أحمد محمد عطيات . (2012م). *الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش*. عمان. الأردن: دار أمواج للنشر والتوزيع.

الدينوري ابن قتيبة. (1418ه). *عيون الأخبار*. بيروت: دار الكتب العلمية.

العسكري أبو هلال. (1419ه). *الصناعتين*. (علي محمد البجاوي.محمد أبو الفضل إبراهيم، المحرر) بيروت: مكتبة العنصرية.

صادق فاطمة الزهراء . (جوان, 2017). التواصل اللغوي ووظائف عملية الاتصال في ضوء اللسانيات الحديثة. *مجلة الأثر*.

طالب عبد الكريم القريشي. (2012). الظاهرة الاجتماعية عند إميل دوركايم (تحليل اجتماعي) . *مجلة دراسات إسلامية معاصرة*، .

عبد الرحمن ابن خلدون. (1993). *ديوان العبر* (المجلد 1). بيروت، بيروت، لبنان: دار الكت العلمية.

عبد الواحد علي وافي. (،1403ه/1983). *اللغة والمجتمع* (المجلد 4). المملكة العربية السعودية: مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع.

عثمان أبو الفتح ابن جني . (1952). *الخصائص*. (علي النجار، المحرر) القاهرة، القاهرة، مصر: دار الكتب المصرية.

مالك بن نبي. (1406ه/1986م). *شروط النهضة*. (عبد الصبور شاهين.عمر كامل مسقاوي، المحرر) دمشق، سورية: دار الفكر.

السير الذاتية للمؤلف :

د. عبد القادر أمزيان أستاذ محاضر أ (منذ 2012)بجامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

تخصص: لغويات، لسانيات (نحو وصرف، علم اللغة الاجتماعي، لسانيات تطبيقية،علم المصطلح)

حاصل على دكتورا في مجال تحقيق مخطوط لغوي، مسائل النحو والصرف، عن طريق منحة تكوين إقامي في إطار الشراكة بين كلية الآداب واللغات جامعة أبو بكر بلقايد بتلمسان (الجزائر)، وكلية الفلولوجيا، جامعة كومبلوتنسي بمدريد، إسبانيا، سنة 2015-2016. لدي عدة مشاركات في مؤتمرات وملتقيات دولية حضورية وعن بعد، في الجزائر، وتونس وإسبانيا.